الأدب في سير أعلامه

بيرون

ذلك العبقري المتمرد الذي غنى أروع
أناشيد الحرية، ولاقى الموت في سبيل الحرية

للأستاذ محمود الخفيف

أقام الصبي في نوتنجهام ووكلت به أمه أستاذاً يعلمه اللاتينية وأحبه أستاذه حباً عظيماً وأعجب بذكائه الفائق، ودهش لكثرة ما قرأ من الكتب؛ وفي تلك المدينة أسلمته أمه إلى رجل ادعى أنه قادر على أن يزيل عاهته وكم كان يتألم الصبي حين كان يدلك ذلك الرجل رجله بالزيت، ثم يلويها في عنف ويشد عليها الوثاق بين خشبتين، ولكن كبرياءه كانت تأبى عليه أن يظهر الألم على ما كان من هوله وعدم جدواه ... ولقد كان ذلك الرجل الغظ يرسله أحياناً إلى بعض الحوانيت ليشتري له ما يريد كأنه خادمه، والناس يعجبون ويألمون أن يعامل اللورد الجميل هذه المعاملة... وكان الصبي ينتقم من طبيبه بكثير من معاكساته، ومنها أن يسأله أسئلة تظهر له جهله فيسخر منه ويطلق لسانه بالتهكم عليه

واستطاعت أمه أن تحصل له من ميراثه مؤقتاً على ثلاثمائة جنيه تدفع له كل عام حتى يبيح له القانون أخذ نصيبه كله. وأخذا يحسان اليسر في معيشتهما، ولكن أمه ظلت على حالها من الشذوذ فهي لا تني تكيل له الشتائم وكثيراً ما تطارده تريد أن تضربه فلا تدركه على الرغم من عرجه، ولقد علمه هذا أن يصيبها ببعض تهكماته وأن يناوئها بعناده وتمرده

وهكذا تظهر الظروف خلاله في هذه السن الباكرة، فهو عنيد متمرد ذو كبرياء، وهو متوقد العاطفة مشبوب الخيال، وهو بارع الكلمة حاضر البديهة، ولسوف تكون هذه في غد خواص شعره يوم يحمل أنصاره وخصومه جميعاً على الإعجاب بذلك الشعر

وأدخلته أمه مدرسة في لندن وهو في الثانية عشرة من عمره، وكانت تزوره هناك أحياناً فيبدو للناس من شذوذها ما يخجل اللورد المتكبر منه، وكم كان يضيق بخلائه إذ يعيرونه بحماقة أمه، فيحاربهم تارة ويعرض عنهم تارة أخرى .. ولقد كان وهو في تلك السن يحمل في جيبه أينما سار مسدساً محشوا، كأنما كان يستعيض به عما لحقه من ضعف بسبب عرجه ... على أن لا يستبعد أن يكون ذلك بعض ما تطرق إليه من شذوذ بسبب ما سمع من الأقاصيص عن اللورد التعس فلقد كان الصبي يبدي إعجابه بما كان يقص عليه الخدم من أنبائه في قصر نيوستر

ونقل الصبي وهو في الثالثة عشرة إلى مدرسة تليق به، وكانت من أكثر المدارس شهرة يومئذ، وهي مدرسة هارو؛ وكان يقوم عليها أحد ذوي المكانة من المربين، وسرعان ما فطن ذلك المربي إلى صفات التلميذ الجديد، فلمح عناده وكبرياءه، ولذلك عول على اكتسابه باللين، فنجح في ذلك نجاحاً كبيراً، وأحب التلميذ ناظره واطمأن إلى عدالته، ولعل هذا هو الشخص الوحيد الذي خضع له بيرون في حياته كلها ...

وهالت المدرسين والتلاميذ جرأته من أول الأمر، فهو يخرج على ما يحد من حريته، وهو يذهب في ذلك إلى أن يعلن إعجابه ببونابرت، بل إنه ليحمل صوراً له وتمثالاً صغيراً، وهو لا يفتأ يتحدث عن الثورة في فرنسا وما تدعو إليه من حرية، ولو كان على رأس تلك المدرسة رجل غير ناظرها هذا لما صبر على جرأة هذا التلميذ الثائر. وسرعان ما حمل التلاميذ على الإعجاب بخلاله، فهو جريء في الحق، يظهر من الشجاعة الأدبية في كل المواقف ما ينال به احترام الجميع، وهو لا يعرف الكذب ولا يطيق سماعه، وهو ولوع بالرياضة على الرغم من عاهته، وهو شديد الإخلاص لأصدقائه لا يبخل على أحد بشيء مهما غلا، وهو مشتعل حماسة وإقداماً، وهو فصيح اللسان، أخاذ العبارة، ذكي الفؤاد؛ وهو فضلاً

عن ذلك كله قد نرأ من الكتب ما لم يقرأ نصفه أحد ممن هم فى سنه. هذا إلى اعتداده بنفسه وحرصه على كرامته وطموحه وبعد همته

لذلك لم يمض على بيرون عام فى مدرسته حتى كان شخصية فذة فأحبه جميع أقرانه ، واحترمه أساتذته ، وأعجبوا به على الرغم من تمرد روحه وتكاسله أحياناً عن دروسه ، وكان ذوو الصبائر منهم يتنبأون لذلك الغلام بمستقبل فذ وأثر فى الأدب خطير

وكان قد ملك قلبه وهو فى الثانية عشرة حب جديد فهام بابنة عم له أخرى هى مارجريت باركر ، ولقد ذكر بيرون فيما بعد أن أول خطوة خطاها فى الشعر كانت بوحى من هذه الفتاة التى كانت تكبره بعام ، على أن يد الموت لم تلبث أن قصفت عودها اللدن وهى فى الخامسة عشرة ، فكان هذا أول حزن أرمض قلب الفتى واستقر فى أعماقه حتى نهاية عمره

وكان يراه التلاميذ فى هارو يحمل كتاباً ويصعد التل القريب إلى مقبرة هناك فيضطجع على قبر تظلله شجرة ويظل يقرأ ويتأمل فى ذلك المكان مدة قد تطول إلى ساعات ؛ وكان مما ظهر من صفاته فى الرابعة عشرة ميله إلى العزلة أحياناً ، وذلك دأب ذوى النفوس الحالمة الحزينة ، ولقد اشتهر فيما بعد أمر ذلك القبر الذى كان يضطجع عليه الشاعر ، حتى لقد أحيط بسياج من الحديد بعد أن أصبح الشاعر فى ذمة التاريخ ، وذلك حين امتدت أيدى الزائرين لهذا المكان إلى أحجاره تحملها كأثر من آثار العبقرية على الرغم من أنهم كانوا يعلمون أن ذلك القبر لم يك قبر بيرون

وأتيح للفتى وهو فى السادسة عشرة أن يذهب إلى قصره فى نيوستد أثناء عطلة صيفية إجابة لدعوى وجهت إليه من مستأجر ذلك القصر ، وكان هذا شاباً يدعى اللورد جراى ، ولشد ما أبهج بيرون أن يرى ذلك القصر ، وأن يرى تلك الشجرة التى غرسها هناك بيده وقد أخذت تترعرع وتكبر

وكان يقوم على مقربة من نيوستد قصر آخر فى موضع اسمه أنسلى ، وكانت تملكه أسرة سودرث وهم من ذوى قرباه ، وكان بيرون يتطلى جواداً إلى ذلك القصر أحياناً ، حيث كان يرى قريبته مارى سودرث وهى فتاة كانت تكبره بعامين ، وهى من سلالة ذلك الرجل الذى قتله اللورد التمس فى مبارزته

وكانت مارى تحب فتى من أهل تلك الجهة على غير علم من بيرون . . . ولكنها رأت فى نظرات بيرون ما لا يخفى على عين فتاة فى مثل هذه السن ، والفتيات يفهمن بغريزتهن لغة العيون إذا ما استبهمت من الخجل لغة الكلام ... ولقد هام بحبها ذلك الفتى المشبوب الخيال الملتهب العاطفة ، واستأثرت بلبه الفتاة حتى ما يرى للوجود معنى غير معنى هيامه بها ، ولا يتصور سعادة تقاس إلى سعادته بحبها ؛ ولكن قلبها لم يك طوعها يومئذ ، فلقد ربطه الحب بقلب غير ذلك القلب الفتى المتوثب ، على أنها وجدت فى هيام اللورد بها ضرباً من اللذة ومعنى من معانى الزهو فطاوعته وجاذبته أطراف الأحاديث ، وجعلت لنومه حجرة فى قصرها ليبيت هناك إذا شاء ، وأهدت إليه صورة لها وخاتماً

وبات الفتى فى فردوسه الجديد يستروح أنسام السعادة ويحلم أحلام الحب ، إلى أن كان ذات ليلة من ليالى فردوسه فى طريقه إلى مخدعه فسمع مارى تقول لخادمتها وقد حسبته قد صار بحيث لا يسمع : « أتظنينني أعبأ حقاً بهذا الفتى الأعرج » ؟ ونفذت الكلمات كالسهام إلى قلبه ، ورأى جنته قد انقلبت جحيماً فى مثل خفقة الطرف ، فخرج لتوه فى الظلام وظل يعدو كالمجنون حتى بلغ نيوستد ؛ فأوى إلى حجرته لاهثاً خائر البدن ، وبقى شارد اللب ساهد الجفن حتى أصبح الصبح ، فعاد إلى أنسلى ولكنه لم يطلع مارى على ما حدث . واستقرت اللوعة فى قلبه فأخذ يخفيها مكابراً معانداً ، يسفه ذلك القلب ويزجره وإن كان ليكاد ينفطر مما به ؛ ولقد كان من أبرز خلاله أنه يطوى على الثورة نفسه فتظل الثورات كامنة فيه حتى تجد متنفساً لها ، ولم يك ذلك المتنفس غير شعره . . . والحق لقد كانت هذه الإشارة إلى عاهته أوجع مما سبقها جميعاً وأشدها نيلاً من كبريائه ...

وحان موعد الذهاب إلى المدرسة فلم يذهب على الرغم من إلحاح أمه عليه وقطعه العهد على نفسه بالذهاب مرة بعد أخرى .. ثم نشب بينه وبين اللورد جراى شجار عنيف لسبب عقل الخجل الشديد لسانه عن أن يفضى به إلى أمه ، ولقد التهب وجهه وهى تستفهمه عنه كأنما سرت فى جسده حمى . . . وأخيراً عاد الفتى إلى مدرسته بعد فوات ثلاثة أشهر منذ بدأت الدراسة وقلبه مثقل بالهموم ونفسه منطوية على الثورة

وحاول بيرون أن يتعزى بأصدقائه عما ناله على يد مارى فأقبل عليهم يستزيدهم من أحاديثهم ، فإذا مال بهم الحديث إلى الحب راح يسخر من الحب بكل ما فى وسعه من معانى السخرية ، فما الحب فى نظره إلا ضرب من الجنون ونوع من الضعف ، وإن الوقت الذى ينفقه المرء فى الهيام أضيع أوقات حياته وأنسها.

يقول ذلك وإن قلبه ليتبس بالحب كأقوى وأوجع ما يكون الحب فيكون مثله فى ذلك مثل من يشتد به الحزن لأمر من الأمور ، فلا يزيد فى دفع هذا الحزن عنى أن يضحك ويغرق فى الضحك ويصيح بأعلى صوته إنه فرح مستبشر حتى إذا خلا إلى نفسه أحس بالجوى أشد لذعاً وأقبح وقعاً مما كان عليه قبل هذا المرح المتكلف

ولاذ بالكتب لعلها تسرى عن فؤاده ، وراح يقرأ منها ما يسفه الحب ويفند أقوال المحبين ويسخر من دعواهم ، ولقد كان يرجو من وراء ذلك أن يبرأ من دائه كما كان يرى فيه ما يتفق مع عناده وكبريائه كأنما كان يريد أن يصرف قلبه عن وجهته بالعنف بعد أن عجز أن يعالله بالصبر

وتزايدت على الأيام محبة أصدقائه له وحرصهم على مودته ، فكانوا يرجعون إليه فى أمورهم ويعدون الاستمتاع بروحه العذبة من أجل أوقات حياتهم فى المدرسة ويحسون جميعاً أنهم دون هذا الفتى الذى يحيا حياة الشاعر وإن لم يحمل بعد قيثارة الشاعر ويعترفون له بالتفوق أرادوا ذلك أو لم يريدوا وإن منهم من يهذه فى الدروس المقررة ويظهر عليه فى كثير من نواحى الحياة المدرسية

وصار يكثر من الذهاب إلى تلك المقبرة التى أحبها فيقضى ما شاء من الوقت فى تأمله وقراءته وأقرانه ينظرون إليه ويشيرون عن بعد قائلين : ها هو ذا بيرون يصعد التل إلى مقبرته

وازداد تعلقه بالمدرسة وحياتها حتى إنه ليحزنه أن تقرب الأجازات الدراسية فهو لا يستطيع أن يذهب إلى أنسلى ولا إلى نيوستد ، وليس أمامه إلا أن يذهب إلى حيث بانت تقيم أمه فى سوتول على مقربة من مقر قصره العتيق ، وهو كلما تقدمت به السن ازداد نفوراً من تلك الأم التى ما تزال تشتمه وتعنفه لسبب ولغير سبب حتى ليضيق بها وبالحياة جميعاً من أجلها

على أنه ما لبث أن سكن إلى أخته لأبيه أوجستا وراح يشكو لها بثه وحزنه وكانت رسائله إليها مفعمة بحماسة قلبه وتوثب روحه وتوقد عاطفته ، وكانت تمدها من أكبر دواعى سرورها كما كان يمد رسائلها إليه ، ولما علم أنها قد مسها عذاب من الحب كتب إليها يظهر توجعه لها ويعلن لها فى الوقت نفسه استهزاءه بالحب وسخافاته

وكرهت إليه قسوة مارى النساء جميعاً وصار يعتريه الخجل إذا طلع عليهن ، على أنه حينما علم بقرب زواج مارى ذهب ليراها وقد كتبت إليه تدعوه ودخلت عليه حيث كان ينتظرها خفيت ، فوضع يده فى يدها دون أن يتكلم ثم خرج مسرعاً فامتطى جواده وراح يسبق به الريح

وأحس بيرون فى سنته النهائية فى هارو حباً شديداً لهذه المدرسة حتى لقد كان يفكر كيف يطيق الخروج منها ، وكان فى سنته النهائية قد قارب السابعة عشرة من عمره وقد أقام من نفسه زعيماً وحامياً لكل من كانوا دونه فى السن ، ولقد كان شديد الولوع بهذه الزعامة عظيم الفخر بها والحرص عليها ، وأخذ فى تلك السن يكثر من نظم الشعر فى الحفلات المدرسية وفى غيرها من المناسبات غير أن أقرانه ورؤساءه كانوا يرون فيه خطيب الغد أكثر مما كانوا يرون فيه شاعراً وذلك لما آنسوه من حماسته فى إلقائه كلماته ولما خبروه من بلاغة عبارته وقوة جنانه وانطلاق لسانه

وأقبل بيرون على دراسة اللاتينية والأغريقية وهو فى هذه السن فتفوق واشتهر أمره فيهما كما تفوق فى السباحة وفى لعبة الكريكت على الرغم من عرجه

ولما حان يوم الرحيل طاف بالمدرسة كلها طائف من الشجن لفراق بيرون ، وثقل ذلك الفراق على هذه النفس الشاعرة حتى ما درى الفتى كيف يتأسى أو كيف يطيق البعد عن هذه المدرسة التى خطى خطوات الفتوة بين جدرانها ... وخرج منها وعبارات التوديع من أقرانه ملء أذنيه وملء نفسه

وألحق بيرون عقب ذلك بكمبردج وهو دون السابعة عشرة ببضعة أشهر ، وأتيح له يومئذ الحصول على خمسمائة من الجنيهات سنوياً من دخله ، وفى كمبردج بدأ بيرون يستقبل حياة الجد ويخطو خطوته الأولى فى مجال الشعر

« يتبع »

الخفيف

الأفصاح فى فقه اللغة

معجم عربى : خلاصة المخصص وسائر المعاجم العربية . يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويسعفك باللفظ حين يحضرك المعنى . أقرته وزارة المعارف ، لا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، يقرب من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير . طبع دار الكتب .

ثمنه ٢٥ قرشا يطلب من مجلة الرسالة

ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى ، عبد الفتاح الصعيدى